التصوف وعلم النفس

للدكتور محمد مظهر سعيد

عميد الفلسفة وعلم النفس والاجتماع سابقاً

صدق فيلسوف الاسلام الرئيس على بن سينا فى قوله عن الانسان :

دواؤك فيك وما تبصر ... ودأؤك منك وما تشعر

وتزعم انك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

وأبدع القدماء حين رمزوا له بأبى الهول ، جسم أسد مقاتل مفترس ، ورأس انسان عاقل مفكر .

واذا كان العالم الأكبر الذى يحيط بالانسان معجز فى خلقه وتكوينه ونظامه ، فان الانسان ذاته هو معجزة هذا العالم الأكبر .

بلى ! فهو مخلوق عجيب من بدن وعقل وروح ـ بدن يطلب الغذاء والكساء والمأوى والنسل ، وغير ذلك من الحاجات الطبيعية ، التى يشارك فيها الحيوان الأعجم ، ولا غنى لحياته المادية عنها ـ وعقل يطلب العلم والمال والحياة ، وغير ذلك من الحاجات المكتسبة التى لا غنى لحياته الاجتماعية عنها ـ وروح تسمو به فى مدارج الانسانية وتجعله أهلا لتقبل كلمة الله ورسالة رسله وكتبه المقدسة ، حتى يصبح بحق خليفة الله فى الأرض ، ويحقق سنته التى استنها لعباده فى هذه الحياة الدنيا .

ومن ثم كانت له نفوس ثلاث ـ نفس بدائية حيوانية ، أمارة بالسوء ، تدفعه لاشباع شهواته فى أى طريق ، وتجعله أسير بدنه وعبد نزواته . ولو ظل فى هذا المستوى ، يعيش لبدنه ونفسه فقط ، لكان مخلوقا منحطا لا يفترق عن الحيوان الأعجم فى شىء ـ ونفس عاقلة مدركة ، تهديه النجدين ، وترشده سواء السبيل ، وتنصب نفسها رقيبا عتيدا ، يحد من شهواته ، ويصلح من نزواته ، بما أوتى من فطنة وعلم ، وما كسب من خبرة وتجربة ، فيصبح مواطنا صالحا وعضوا عاملا فى الجماعة ، يتعاون على البر والتقوى ، وليس على الاثم والعدوان ـ ونفس روحية سامية ، راضية

مرضية ، تدخل فى عباد الله ، وتدخل فى جنتـــه ، وتتأدب بأدب الدين ، وتتخلق بالخلق الكريم ، وتنشد المثل العالية والأهداف السامية ، وتصل الى مكارم الأخلاق ، وتجعله أقرب الى الملائكة منه الى الحيوان .

وتدرج الانسان فى مرتبة نفسية أدنى الى المرتبـة الأعلى ، ليس بالأمر الهين اليسير ، الذى يأتى عفوا ودون جهد أو مشقة ، وانما هو الجهـاد الأكبر ، الذى ينتصر فيه الانسان ، بعقله وتأمله ، وجهده ورياضته ، وصبره وتعبده ، على حيوان البدن النهم الذى لا يشبع ، وشيطان الفكر الذى يزين له طريق الشهوات .

ولا بد للانسان فى هذا الجهاد الأكبر ـ جهاد النفس ـ من سند وعدة ، ولا سند يرفعه من أدران المادة الى صفاء الروح ، غير الدين والايمان ، ولا عدة فى كفاحه ضد الشيطان غير التعلق بأهداب الرحمن .

وليست حقيقة الوجود فى طعام أو مال أو جاه ، فذلك مظهره الأدنى الذى يبدو للجاهل العجول ، وليست لذة النفس فى شهوة بطن أو فرج ، فتلك لذة الحيوان . وانما حقيقة الوجود يبدو جوهرها لمن يتأمل مصدر هذا الوجود ، ولذة الروح يشعر بها من يصل الى معرفة الحق .

وقد عرف الحكماء هذه الحقيقة منذ أن بدأ عقل الانسان يفكر ويتـأمل ، ونفسه تتطلع الى ما هو أسمى ، فأخذوا أنفسهم بالصبر والرياضة ، وكبحوا جماح شهواتهم ، واعتزلوا دنيا الناس ، بما فيها من شرور وآثام ، الى دنيا روحية ، كلها صفاء وسلام .

وقد فتح لنا الرسول عليه الصلاة والسلام باب الخلاص ، ودلنا على طريق المعرفة ، اذ أخذ نفسه بالصلاة والصيام ، ليكبح جماح النفس الامارة بالسوء ، ثم بالمعرفة والتأمل ، ليصل بالروح الى الملأ الأعلى ، وقد وصل .

وترسم الصالحون المؤمنون خطاه ، وساروا على نهجه فتصوفوا ، وصار لهم مريدون وأتباع ، نشروا نور الدين ، ودعوا لمكارم الأخلاق ، فى سائر بقاع الأرض ، فكانوا بحق الرواد الفاتحين ، والمعلمين المربين .

وللمعرفة مصادر مختلفة وطرق متباينة ، ولكنها كلها ، تصل بمن يجد

فيها ويخلص لها الى الحق . فأهل السنة فى السلف الصالح ، الذين صاحبوا الرسول عليه الصلاة والسلام ولازموه ، واقتبسوا من علمه ، وتأدبوا بأدبه ، واهتدوا بهديه ، وجدوا فى القرآن الكريم والحديث الشريف كنوزا غنية من التفكير والاجتهاد ، فوصلوا الى معرفة الحق ، بقدر ما دعت أفهامهم ووسعت صدورهم ، ولذلك سموا أهل « النقل » والفلاسفة والاشاعرة والمعتزلة ، الذين درسوا فلسفة اليونان وأدب الفرس وحكمة الهند ، أخذوا أنفسهم بالمنطق ، فاستفسروا وجادلوا ، وناقشوا ووضحوا ، فوصلوا الى معرفة الحق ، بالمنطق والفكر ، ولذلك سموا أهل « العقل » .

والمتصوفون الذين انقطعوا للزهد والتقشف ، وانصرفوا للرياضة والتأمل ، كشفت حجب أبصارهم ، وتجلى الحق لبصائرهم ، فسموا أهل « الذوق » .

ولكن طريق التقشف وحده وكبح جماح النفس الامارة بالسوء ، لا يصل بالمتصوف الى معرفة الحق ، وانما هناك أمور سبعة يأخذ بها المتصوف نفسه ، فى جد وحزم ، ومشقة وجهاد . فلا بد أولا من التوبة النصوح والندم على ما فات ، والعهد بالامتناع ، فلا يعود ولو مرة واحدة ، بالفعل أو حتى التذكر ، لما كان يفعل أو يشتهى - والنبذ لكل رغبة تربطه بالمادة والجسد - والفقر اختيارا لا اضطرارا ، ليخلص من سلطان الثروة واغراء المال - والصبر على مشقة الرياضة والجهاد - والثقة بالله ، مصدر القوة والعون - والتسليم لارادته والخضوع لمشيئته .

وفى هذا الطريق الشاق الوعر ، المحفوف بالاغراء والرغبة فى النكوص ، أحوال تعترى المتصوف - من خوف الفشل ، والرجاء فى النجاح ، حتى اذا ما اجتاز هذه المرحلة الوعرة ، وانصرف بشغاف قلبه وجوارحه وفكره الى الله ، وتعلق به ، وأحبه كل الحب ، ظفر بسعادة المشاهدة ونعمة اليقين - ووصل ففنى فى الله جل جلاله - وعرف أنه وحده ، ولا كائن سواه - الكائن المطلق والخير المطلق والحب المطلق وأنه هو وحده الحق .

وآية وصوله الى الحق ، غيبة القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق ، اشتغالا بالحق - ولا شىء غير الحق .

واذا قتل نفسه بالقمع والمنع ، وماتت فيه الشهوات البدنيـــة ، والمغريات المادية ، فنى فى ذات الله ، وبعث من جديد ، ليحيا حياة أسمى – أين منها حياة الدنيا الفانية وعرضها الزائل .

هكذا يصل الانســـان ، الذى خلق من حمأ مسنون ، وتفتحت روحه العلوية المتطلعة للحق والخير والجمال ، فى بدن تأسره النزوات والشهوات ، الى المعرفة الحقة والعلم اللدنى – عن طريق التصوف .

واذا ما وصل المتصوف الى الغاية ، لم يكتف بخلاص نفسه ، والانقطاع عن جهنم الدنيا ، انتظارا لجنة الآخرة ، كما يفعل الرهبان والزهاد ، وانما هو يعود الى الناس مرة أخرى ، ليهدى الضال ويقنع الحائر ، ويدعو لمكارم الاخلاق .

وهكذا يصبح قطبا يلتف حوله المريدون ، الذين يرشدهم ويهـــذبهم ، ويأخذهم بالرياضة والتأمل ، كما أخذ نفسه ، ويدفعهم فى طريق التصوف الصحيح ، لعلهم يصلون كما وصل ، ويتخير منهم العرفاء ثم النقباء ، الذين يمشون بين الناس ويسعون فى الارض – يعلمون الناس ما تعلموا ، ويؤدبونهم كما تأدبوا .

وبهذا النظام المكتمل والتنسيق البديع ، من القطب الى المريد ، نشـأت الصوفية الاســـلامية ، وانتشرت فى أرجاء الارض ، فكانت رائدة الفتح الدينى ، ورسول الصفاء والسلام .

وليس من شك فى أن انتشار الاسلام فى البقـاع المجهولة والاصـقاع المتخلفة ، والنهضة الدينية التى نقلت قبائل وشـــعوبا بأسرها من البربرية الوحشية ، والبدائية الوثنية ، وجعلتهم أمما يشعرون بانسانيتهم ، ويهبون لتحريرهم ، ويصمدون فى كفاحهم من أجل حريتهم ضد المستعمرين ، مما نلمس آثاره الآن ، فى بلاد أفريقيا المتحررة ، انما يرجع الى الجهد الجبار الذى بذله أقطاب الصوفية منذ قرون ، ورسالة الحرية والحيـــاد الايجابى التى نادت بها الثورة المصرية .

ولست أشك فى أن العقيدة الدينية التى تأصلت فى نفوس الطبقات الكادحة

من الفلاحين والعمال المصريين ، بفضل الأزهر الشريف والطرق الصوفية، هى العاصم الأكبر لهم عن الجريمة والفوضى والانحلال الخلقى ، وغير ذلك من السلوك العدوانى الذى يسود بيئات البلاد غير الاسلامية ، التى تعيش فى مثل الظروف الاقتصادية القاسية .

وليس من شك فى أن بعض رواسب الفساد والانحلال ، والخروج عن الجادة وسواء السبيل ، وأن البدع والخرافات قد وجدت طريقها الى نفوس السذج البسطاء ، وأن بعض الطرق الصوفية اسما ، هى فى حقيقتها حرب على الدين ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، الذى نزل القرآن الكريم ، وحفظه عن كل تحريف وتبديل، وأتم نعمته على عباده بالاسلام الحنيف، قد تدارکنا برحمته .

وها هى مشيخة الطرق الصوفية ، فى عهد الثورة المباركة ، تثور بدورها على البدع والخرافات ، وتضرب بيد من حديد على المشعوذين والدجالين ، والمخبولين الذين يتاجرون باسم الدين ، وتنظم الصفوف من جديد ، وتجعل مجالس الصوفية ذكرا خالصا لله ، وترتيلا مؤثرا للقرآن ، ودروسا مثمرة فى الدين ، مما يبشر بنهضة رائعة وبعث عظيم .

وعلم النفس اذ يدعو لبناء الشخصية الكاملة فى ذاتها ، المتكاملة مع غيرها ، المتعاونة على البر والتقوى ، المتطلعة لسمو الخلق ، يقرر أن الايمان واليقين، والتعلق بأهداب الدين ، والرياضة النفسية الكابحة لجماح النزوات والشهوات ، والتأمل الموصل للمعرفة الحقة ، كل أولئك لبنات الأساس المتين لهذه الشخصية المسلمة المؤمنة المنشودة .

وفقنا الحق لمعرفة الحق ، ومصدر الخير لفعل الخير ، ومنبع الجمال لتذوق الجمال .

محمد مظهر سعيد